سلسلة الفقه بين الأصل والصورة

المرأة في حياة محمد ﷺ

الدكتور محمد الحبش

سلسلة الفقه بين الاصل والصورة

المرأة في حياة محمد ﷺ

٢١/٤
٢٢٦م

الدكتور محمد الحبش

مركز الناقد الثقافي
مؤسسة ثقافية فنية مستقلة

دمشق – ساحة عرنوس – بناء واحة عرنوس – بجانب السفارة
البلغارية الدور الرابع – مكتب رقم ١ – ص ب : ٣١٤٩٠

أسس عام ٢٠٠٧ بمدينة دمشق.

- **رسالة المركز :**

- أن يكون عربياً، مسلماً، إنسانياً، عالمياً، يشع بحروفه الفاهمة حواراً، وتلاقياً، وتعارفاً، وحكمة ..
- محاولة جادة للخروج من القوالب الجاهزة والأفكار المعتادة والقناعات المحنطة .
- نقلة نوعية من اللاإدراك إلى الإدراك بلوغاً إلى الأمل على أن يصبح أي تعاهد واستيثاق من غائب مغيب حاضر فاعل.
- الناقد الثقافي لن يكون حبيس منظومة دائرية أو حلقة فكرية مفرغة بل هو إسعاف وإنعاش للفكر والوجدان .

تتم التحويلات المالية باسم مركز الناقد على الحساب التالي :

IN USD ($)
Correspondent bank :
SWIFT:COBADEFF — **COMMERZBANK / FRANKFUR**
Beneficiary bank : — BANQUE BEMP SAUDI FRANSI
SWIFT : BBSFSYDA — (MARKAZ AL NAKED/BBSF)
Name of the final beneficiary : — **(0125719/BBSF)**
Account number of the final beneficiary :

IN SAUDI ARAB RIYAL (SAR)
Correspondent bank :
SWIFT : BSFRSARI — **BANQUE SAUDI FRANSI**
Beneficiary bank : — BANQUE BEMP SAUDI FRANSI BBSF
SWIFT;BBSFSYDA — (MARKAZ AL NAKED/BSF):
Name of the final beneficiary — **(0125719/BSF)**

تحذير وإنذار

- من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.
- قرار مجمع الفقه الإسلامي لمنظمة المؤتمر الإسلامي رقم (٥) د ١٩٨٨/٩/٨ م بشأن الحقوق المعنوية أسقط الفتاوى التي يتذرع بها لصوص الكتاب لتغطية كسبهم الحرام فقد جاء في مادته الثالثة: ((حقوق التاليف والاختراع أو الابتكار مصونة شرعاً ، ولأصحابها حق التصرف فيها، ولا يجوز الاعتداء عليها))
- صدر في سوريا قانون حماية حقوق المؤلف رقم ١٢ بتاريخ ٢٠٠١/٢/٢٧ ويقضي القانون بحماية حقوق المبدعين والمفكرين في شتى ميادين الأدب والعلم والفنون من مختلف أشكال العبث سواء بالانتحال أو التشويه أو الطمس أو بأي مسّ من شأنه أن يسيء إلى المؤلف .

جميع الحقوق محفوظة
لمركز الناقد

الوكيل الحصري المعتمد للتوزيع
في الخليج العربي
مركز الراية المعرفية/ جدة

الناقد الثقافي
الدراية لا الرواية
2008

سلسلة الفقه بين الأصل والصورة

المرأة في حياة محمد ﷺ

الدكتور محمد الحبش

الفكرة في سطور

✦ المرأة المعاصـــرة تعامـــل اجتماعياً في الواقـــع بإثنية صارمة، إما قديســـة وإمـــا عاهرة، وبالأســـلوب ذاته تعامل الدراســـات الـــتي تكتـــب عـــن المـــرأة، فهي إمـــا ملتزمة صارمـــة، وإما إباحيـــة ماجنة، وهذا في الواقع أسـلوب جد خاطـــئ، يـــؤدي حتمـــاً إلى تعميـــة الحقيقـــة، وإصـــدار الأحـــكام المســـبقة، وهـــو علـــى كل حال خـــلاف المنهج القـــرآني: ﴿نتقبل عنهم أحســـن مـــا عملـــوا ونتجاوز عن ســـيئاتهم﴾[الأحقـاف٤٦/١٦]، وخلاف هـــدي النبي الكريم ﷺ: ((**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها**)).

✦ أجد نفسي مطالباً بشدة للاعتذار للمرأة المسلمة التي توجهت إليها في دراسي، ذلك أننا نتحدث عنها بإفراط في الجوانب الجسدية كالحجاب والحيضوالنفاس والنكاح وغير ذلك، ونقصرتقصيراً شديداً في وفائها حقها في الحديث عنها روحاً طاهرة، ومشاعر صادقة، وحناناً متدفقاً، بحيث لا ننتبه إلى ما يعصف بقلب الأنثى من مشاعر الحب والجمال، والشوق والتدفق، ومكامن الإلهام، والذي يعذرني في ذلك أننا نتكلم

علىما يتطلب إصلاحه، وهو للأسف يتصل في جانب كبير منه بالظروف المادية، فيما أجد أن المرأة لا تُنازع في حقوقها وواجباتها الروحية، وآفاق ألقها وإشراقها فيه.

✦ ما أوردته من شواهد مشاركة المرأة في عصرالرسالة ليس إلا أمثلة ملهمة، و المطلوب إنما هو الوعي بدلالاتها في السياق التاريخي، والنهج على منوالها احتذاءً وأسوة، وليس المراد بالطبع التوقف في كل مطلب على ورود حدث مشابه يقاس عليه، فمن أين للظروف المحدودة زماناً ومكاناً في الحجاز وهي طرف من جزيرة العرب أن تكون معياراً للسلوك البشري في عالم يمتد طولاً وعرضاً في القارات السبع، وتتفاوت درجات الحرارة فيه من خمسين تحت الصفر إلى خمسين فوق الصفر، وتسود فيه أكثر من ألف لغة وألف قومية، وتتغير معالمه كل قرن عدة مرات، ويسكن بعض أهله في بيوت القش وآخرون في ناطحات السحاب، ويبلغ طول النهار في بعض أطرافه اثنين وعشرين ساعة وفي مناطق أخرى لايزيد عن ساعتين.

✦ المشكلة بوضوح أننا نتخير رؤية واحدة من هذا الفقه العظيم، ونتجنب عن عمد رؤىً كثيرة، بل إننا نعمد

إلى طمس الخيارات التي أعرض عنها فقهاؤنا المرجحون في مرحلة تاريخية ما، ووصمها بالشذوذ أو الانحراف على الرغم من أنها قد تكون أقرب إلى هدي النصوص وأكثر استجابة لمتطلبات زماننا، وهكذا فإن اختيار الرجل قطعة من عقله، واختيار الأمة أثر من واقعها في النهوض أو السقوط، وصورة لرغائبها في الوثوب أو الخمول.

✦ لست داعية قعود عن الاجتهاد بدعوى غنى المصادر،بل أجد نفسي من أكثر المتحمسين لإطلاق باب الاجتهاد إلى الغاية، وليأكل الفكر بعضه بعضاً فالبقاء للأصلح والعاقبة للمتقين، والناس والتاريخ بعدئذ بسبيل الحكم في كل اجتهاد أرشد أم غي.

✦ إن قعودنا عن الاجتهاد لعجيب، وأعجب منه قنوطنا منه وإياسنا من رجائه، والأشد عجباً قعودنا عن التخير من اجتهاد السابقين الذين كفونا مؤونة هذا التقحم، إذ بسطوا لنا اجتهادهم وفكرهم نثاراً لنتخير منه في كل جيل.

◘ ◘ ◘

مقدمة

د. محمد الحبش

تجد في هذه الدراسة مجموعة من المواقف التي قمت برصدها في مجتمع النبوة الأول، إن المدهش أن الاقتراب من عصر النبوة يأخذك إلى أجواء من التسامح النظيف أعقبتها قرونًا متتابعة من التشدد، وكأنما كان القرن الأول الهجري استثناء من السياق التاريخي الذي عانت فيه المرأة تفريطًا في الجاهلية نقيض ما عانت منه إفراطًا في عصر سدّ الذرائع، وكلاهما كان سجنًا عانت فيه روح المرأة، وانقطّعت آمالها في دور حقيقي في بناء الحياة .

ولعلّ خير ما كتبنا في تقرير هذه الحقيقة كتاب العلامة الأزهري المجدّد الشيخ عبد الحليم أبو شقة: تحرير المرأة في عصر الرسالة، ومن المؤكد أنّ هذا البحث عالة عليه، وقد يكون الأدق أن نقول: إنه قبس منه، فالرجل كان فارس الفكرة وتمكن أن يستنطق عصر النبوة لرسم ملامح نهضة المرأة في ضياء النص المقدس، قرآنًا وسنة.

في عصر الرسالة لا وجود لامرأة لا ترى الرجال ولا يراها الرجال، لا وجود لمجتمع يخجل من ذكر اسم امرأة، لا وجود لامرأة يزوجها أبوها وهي كارهة ، ولا وجود لأسوار عالية تحول دون النساء والرجال في المساجد.

في عصر النبوة يشترك الرجال والنساء في المساجد، والمدارس والأسواق، ويتوضؤون من إناء واحد،ويأكلون على خوان واحد.

في عصر النبوة لم يفرض خمار الوجه درءاً للفتنة، و لم يمارس التجهيل ضد المرأة إرادة إرغامها على العفاف.

في عصر النبوة لم تجبر المرأة على الختان، و لم تحبس وراء الجدران، و لم تمنع إماء الله من مساجد الله، وعرفتها ساحات المعركة حكايات بطولة كما عرفتها رحلة الشتاء والصيف مشروع تنمية وازدهار.

في عصر الرسالة كانت المرأة أول قلب اطمأن بالإسلام وأول شهيد يخطو إلى الجنة، وأول مهاجر يركب البحر، وأول ثائر يشقّ الصحراء، وأول مشفى متنقلة تمنح العافية، وقدمها القرآن أول ثورة في وجه الفرعون، كما قدمها في صورة مريم أول ثورة على الكهنوت تمنح المرأة مكانها في صدر المعبد.

ستطوف بك هنا قراءات لدور المرأة في عصر الرسالة لا يتلقاها الفقهاء اليوم باستحسان، وسيذهبون يلتمسون لها المعاذير، ويفرضون عليك وجوهًا من التأويل، وغاية اعتذارهم بأن فتح هذا الباب سيقود إلى فتن عظيمة والأفضل غلقه بالكلية، أو وضعه في سياق عصر النبوة الملائكي، حيث كان الناس هناك حصوريون عذارى ، ثم لم يعودوا بعدُ كما كانوا ثمة أبدًا!!..

◘ ◘ ◘

١ المرأة تمارس نشاطاً سياسياً وتمنح جواراً لبعض الفارين من العدالة:

كانت مشاركة المرأة في النشاط السياسي ظاهرة ومؤكدة،وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في فصل خاص، ونورد هنا بعض المشاركات الأخرى كانالنبي الكريم قد فتح مكة بعد ثماني سنين من هجرته، وحين تم الفتح فر كثير من المشركين الذين سبقت منهمموافق معادية للإسلام، وقد استجار رجلمنهم هو ابن هبيرة بأم هانئ ابنة عم النبي الكريم، ولكن بعض الصحابة الذين ذاقوا مظالم المشركين اعترضوا علىذلك، فجاءت أم هانئ إلى النبي الكريم فقالت: «يا رسول الله، زعم ابن أمي (شقيقها علي) أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة فقال رسول الله ﷺ:**((قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ))**[1] .

---

١ أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس باب أمان النساء وجوارهن،انظر (فتح الباري). ٣٨/٧ كما أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين.

ولا شك أن ما قامت به أم هانئ هنا من جوار سياسي يتجاوز حدود البداية الاستئناف والنقص، كما يتجاوز حق التصويت والترشيح، وهي حقوق لا تزال تيارات إسلامية تناضل اليوم لمنع المرأة من المشاركة فيها، بحجة نقص عقلها تارة والإشفاق عليها أخرى، وفساد الزمان مرة ثالثة.

ولكن موقف النبي الكريم ﷺ في تأييد موقف أم هانئ هو تقرير منه لحق المرأة في مزاولة العمل السياسي بكل أشكاله بما فيها العمل على نقض المراسيم السياسية العليا في حالة الحرب، وذلك في إطار دستوري جريء .

٢

المرأة تمضي مع الرجل حيث تقتضي الحاجة، تستعين به في قضاء حوائجها

عن أنس بن مالك قال: كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت[١]، وفي رواية مسلم أن امرأة قالت: يا رسول الله لي إليك حاجة، فقال: يا أم فلان. انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.[٢]

وفي رواية أحمد عن أنس قال: كانت الوليدة (الفتاة) من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما يترع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت.[٣]

ولا شك أن ما كان عليه النبي الكريم من التسامح في أمر لقاء المرأة لا يشبه في شيء ما يطالب به فقه الشدة اليوم

١- رواه البخاري في كتاب الأدب باب الكبير، وأنظر فتح الباري حـ١٣ /١٠٢
٢- رواه مسلم، كتاب الفضائل ٧٩/٧
٣- رواه أحمد في سنده عن أنس، وانظر فتح الباري.١٦١/٤

من الفصل التام بين الذكور والنساء على الرغم من صيغ الحجاب والنقاب السائدة.

ومن الواضح هنا أن روح اليسر والتسامح في لقاء الرجال بالنساء ضمن واقع العفاف الاجتماعي كانت غالبة في الهدي النبوي، ولو طبقت قاعدة سد الذرائع كما نفهمها اليوم لأصبحت كل هذه الروايات في دائرة الريبة، على أساس أنها معبر إلى الخطيئة والفحشاء، ولكن الرسول الكريم هنا تجاوز الذرائع المفترضة واختار الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

▫ ▫ ▫

٣

المرأة تخطب أمام الرجال وتحاور وتناقش

عن مسلم بن عبيد أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبي ﷺ وهو جالس بين أصحابه فقالت: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله -عز وجل- بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الأجر والخير»، فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: ((هل سمعتم مقالة امرأة قط، أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟)) فقالوا: «يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا».[1]

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥٠ /٣٩٨

ومواقف النساء في حوارهن ونقاشهن أمام الرسول بحضرة الرجال كثيرة مشهورة، وهي واضحة في بيان رفع الحرج في هذا، ولكن خيار المتأخرين للأسف يذهب إلى تحييد المرأة وتغييبها وعزلها.

□ □ □

٤- المرأة تقيم الولائم وتستقبل الضيفان:

أورد ابن الأثير أن جعدة بنت عبد الله البخاري الأنصارية كان النبي يأتي إلى مترلها ويأكل عندها[١] وكذلك كانت أم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله يترل عليها الضيفان.[٢]

والشفاء بنت عبد الله القرشية كانت من عقلاء النساء وفضلياتهن، وكان الرسول الكريم يزورها، ويقيل عندها ـ القيلولة نوم الظهيرة ـ واتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه[٣]، وقد قدر النبي الكريم موهبة هذه المرأة وأقطعها داراً بالمدينة، فكانت تتخذها دار ضيافة لمن يزور النبي من القبائل.

وشهيدة أم ورقة الأنصارية كانت أيضاً من شريفات المدينة، وكان النبي يقول لنا: انطلقوا بنا إلى الشهيدة

١- أسد الغابة ٥٠ /٤١٥
٢- رواه مسلم في كتاب الفتن وأشرطة الساعة
٣- أسد الغابة ٤٨٦/٥٠

نزورها، وكان يأمرها أن تؤذن في دارها وتقيم وأن تؤم أهل دارها في الفرائض.[١]

وخبر النبي ﷺ يوم الإسراء حيث كان يبيت في دار أم هانئ بنت عبد المطلب مشهور.

وأم حرام بنت ملحان خالة أنس بن مالك كان النبي الكريم يزورها في بيتها، ويقيل عندها، وكذلك أم سليم، عن أنس قال: «كان النبي ﷺ إذا مر بجنبات أم سليم دخل عليها فسلم عليها»[٢].

وعن سهل بن سعد أن أبا أسيد صاحب النبي أعرس، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم لعرسه، فكانت العروس خادمهم،[٣]وفي رواية البخاري عن سهل قال: «لما أعرس أبو أسيد الساعدي دعا النبيﷺ وأصحابه فما صنع لهم طعاماً ولا قربه إليهم إلا امرأته أم أسيد».[٤] وفي سياق آخر للبخاري: فكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهي العروس.[٥]

١- أسد الغابة ز٥/٤٨٩
٢- صحيح البخاري، باب إن حلف أن لا يشرب نبيذاً، حديث رقم ٧٠٣٦
٣- صحيح البخاري، كتاب النكاح باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس
٤- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب النقيع والشراب الذي لا يسكر في العرس، وأنظر فتح الباري ز١١/١٦١
٥- المصدر نفسه

ومن النساء اللواتي كان النبي الكريم يزورهن ويقيل عندهن أم سليم بنت ملحان، وهي أخت أم حرام، فعن أنس قال: إن أم سليم كانت تبسط للنبي ﷺ نطعاً فيقيل عندها على ذلك النطع، فإذا نام النبي ﷺ أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة، ثم جمعته في سك وهو نائم.[1]

وعن أنس أيضاً قال: «كان رسول الله يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته وجعلت تفلي رأسه،[2] فنام النبي ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك..الخ».

□ □ □

١- رواه البخاري ومسلم، البخاري في كتاب الاستئذان، ومسلم في كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي والتبرك به.

٢- رواه البخاري ومسلم. البخاري في كتاب الجهاد، باب الدعاء بالجهاد، ومسلم في كتاب الإمارة، فضل الغزو في البحر.

المرأة تشهد مع الرجال المناسبات العامة

عن أم عطية الأنصارية أن النبي ﷺ قال في العيد: ((لتخرج العواتق وذوات الخدور، والحيّض، فيشهدن الخير ودعوة المسلمين)).(١)

وقد كان اجتماع العيد حاشداً بالناس رجالاً ونساء وأطفالاً، وكان النبي الكريم يشرف بنفسه على بعض برامج مهرجان العيد من الرياضة والمسابقة، وغيرها من الترفيه، ويشترك الرجال مع النساء في متابعة هذه الأنشطة العبادية والرياضية والاجتماعية. ومن الألعاب التي كانت تنظم يوم العيد لعب الحبشة والسودان بالدرق والحراب، وكانت عائشة تتابع هذه الرياضة مع النبي الكريم.(٢)

وهكذا فقد كانت صلاة العيد مهرجاناً عاماً للأمة يشارك فيه الرجال والنساء معاً من غير نكير، على ما كانيصاحب هذه الأنشطة من بهجة وسرور، ولم يكن اللقاء مقتصراً على الصلاة فحسب، بل إن النبي الكريم أمر النساء الحيّض، وهن لا يصلين

١- رواه البخاري في كتاب العيدين، باب اعتزال الحيض المصلى، وله عنده ست طرق
٢- انظر على سبيل المثال البخاري في كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد

أن يخرجن يوم العيد إلى المصلى، واعتذرت إحداهن بأنها لا تملك جلباباً (ثوباً لائقاً فلم يعذرها، وأمرها أن تستعير من صديقاتها جلباباً، وقال: ((**لتلبسها صاحبتها من جلبابها، ولتشهد الخير ودعوة المؤمنين**)).[1]

ألا يكون هذا النص ملهماً للأمة أن مشاركة النساء الرجال في الاحتفالات العامة، والمناسبات الدينية والوطنية ليس عملاً مشروعاً فحسب، بل هو مؤيد بسنة النبي الكريم.

قال النووي في شرح هذا الحديث: «فيه استحباب حضور مجامع الخير، ودعاء المسلمين، وحلق الذكر والعلم، ونحو ذلك»[2]

وهنا نشير أنه على الرغم من وضوح الأدلة، والتزام تيار الفقه الظاهري بها ولكنها اليوم مهملة في معظم بلاد المسلمين وليس للنساء أي دور في صلاة العيد، وحضورهن لا يتعدى عشر الرجال، حيث يحضرن في سدد المساجد ساعة أو بعض ساعة يؤدين الصلاة ويرجعن في سبيلهن، وقد كان السياق المفترض أن تتوفر للنساء في الأعياد فرصتهن في اللقاء والتعارف والفرح والبهجة، وهو أمر لم نتقدم فيه خطوة واحدة على الرغم من وضوح مشروعيته بالعقل والنقل.

١- البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب إذا لم يكن لها جلباب في العيد.
٢- شرح النووي على صحيح مسلم ٦/١٨.

المرأة تنظم الشعر وتنشده أمام الرجال

شاركت المرأة المسلمة في عهد النبوة في الفنون المتاحة آنئذ، ومن أشهرها إنشاد الشعر وعرضه على الناس.

ومن الصحابيات اللواتي اشتهرن بإنشاد الشعر في المحافل (أمامة المريدية) من الأنصار كانت تقرض الشعر وتنشده أمام النبي والصحابة، ومن شعرها في مقتل رأس المنافقين أبي عفك:

تكذّب دينَ اللهِ والمرءَ أحمدا لعمرُالذي أمناك أن بئس ما يُمنى

وذكر أيضاً أن الخنساء تماضر بنت عمرو كانت تدخل مسجد النبي الكريم مع قومها، فتنشد فيه شعرها، وكان النبي يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تنشده، وهو يقول: هيه يا خناس..،[1]وأجمع أهل الشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أعلم بالشعر منها.

١- المصدر نفسه ٥/٤٤١، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٧/٦١٣ ترجمة الخنساء بنت عمرو

وبالتأكيد فليس من المألوف اليوم في بلادنا أن يتاح لأي امرأة أن تدخل إلى مسجد من المساجد فتلقي بحضرة الرجال شِعرًا أو موعظة أو خطابًا، والمكان التقليدي للنساء هي سدد محصنة مغلقة نقوم دائمًا بإضافة المزيد من القيود عليها سدًا لذرائع الفتنة وهي في معظم الأحوال ذرائع موهومة غير واقعية.

وأيضاً فإن النساء كن يوفرن في بيوتهن منابر للأدب والشعر يتعاقب فيها الرجال والنساء، وقد اشتهر في هذا الباب نشاط سكينة بنت الحسين حيث كانت دارها مجمع أهل الفن والأدب تستنشدهم فينشدون، ويطوفون بنوادر الحكمة وروائع الفن.

وقد سبق إلى ذلك عائشة، فعن مسروق قال: دخلنا على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشبب بأبيات له وقال في الثناء على عائشة:

حصانٌ رزانٌ ما تزنُّ بريبة وتصبحُ غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: ولكنك لست كذلك،[1] تعرض بموقفه يوم الإفك.

١- رواه البخاري في كتاب المغازي، حديث الإفك، ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة

ولا شك أن السلوك الذي مضت إليه عائشة رضي الله عنها قد وجد من ينسج على منواله من خيار نساء الصحابة والتابعين، وربما كان أوضح مثال لذلك السيدة الفاضلة سكينة بنت الحسين التي أطلقت في مدينة دمشق أول صالون أدبي كان يغشاه الشعراء والأدباء، وتجري فيه المناظرات العلمية والأدبية، وأخبارها مع شعراء العصر الأموي كثيرة ومشهورة، وخاصة مع كثّير عزة الذي كان يغشى مجلسها وينشد الشعر فيه.

وفي زماننا فإن هذا اللون من النشاط لا يستقبل بالترحاب، بل إنه غالبًا ما يكون مثار غمز ولمز، وعلى الرغم من قيام المراكز الثقافية اليوم بهذا الدور، ولكن يجب الاعتراف أن المرأة المتدينة خصوصًا لا تزال تعتزل هذه الأجواء، وتتجنبها، مع ملاحظة أن عددًا من السيدات الداعيات قد دخلن الحياة الثقافية وشاركن فيها، وهو موقف يستحق الثناء، والمأمول أن تكثر مشاركتهن ويزداد نشاطهن في هذا السبيل.

◘ ◘ ◘

٧ المرأة تعمل وتتجر وتكسب وتبيع بنفسها

كانت امرأة بالمدينة تبيع العطور يقال لها الحولاء العطارة، فكان النبي الكريم يأنس بها، ويقبل عليها، وربما دخل بيته فقال: ((**أين الحولاء العطارة، إني لأجد ريح الحولاء، فهل ابتعتم منها شيئاً؟**))[١]

وريطة بنت عبد الله الثقفية زوجة عبد الله بن مسعود كانت امرأة صناعاً، تعمل وتكتسب وتنفق على زوجها وأولادها، وجاءت النبي فقالت: «إني امرأة ذات صنعة فأبيع وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي شيء، ويشغلوني عن أن أتصدق فهل لي في النفقة عليهم أجر؟» فقال: ((**لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم**)).[٢]

١- ابن الأثير في أسد الغابة جـ٥ /٤٣٢
٢- المصدر نفسه ٤٦١/٥.

وكانت زينب بنت جحش زوجة النبي الكريم امرأة صناع اليد تعمل بيدها وتتصدّق به في سبيل الله.[1]

وعن جابر بن عبد الله قال: طلقت خالتي فأرادت أن تجذ نخلها (في فترة العدة) فزجرها رجل أن تخرج فأتت النبي الكريم ﷺ فقال لها: ((**بلى.. فجذّي نخلك فإنك عسى أن تصّدّقي أو تفعلي معروفاً**)).[2]

وها هنا فإن النبي الكريم نهاها أن تتوقف عن العمل حتى في فترة العدة رغم عدم حاجتها الملحة لذلك، وأعتقد أن مثل هذا النص ينبغي أن يصحح مفاهيمنا عن العدة.

ومن نافلة القول هنا الإشارة إلى السيدة خديجة -رضي الله عنها- التي كانت من أبرز التجار وقادة الأعمال في مكة، وكانت ثروتها التجارية أهم رفيد لدعوة الرسول الكريم ﷺ، وثناؤه على دورها في الرسالة كان واضحًا، ولا أشك أنه لو طال بها الزمن لكانت أهم أركان الفريقالاقتصادي في الدولة الإسلامية الناشئة بما توافر لها من خبرة تجارية واقتصادية.

١- المصدر نفسه .٥/٤٦٥
٢- رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب جواز خروج المعتدة

إن دور المرأة المسلمة في عالم الأعمال والمال اليوم ضامر وضعيف، ولا يشبه في شيء دور المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي الأول، ونحن ندعو حلقات التعليم الديني النسائي إلى إحياء سيرة نماذج المرأة المسلمة الأولى كما رأيناها في خديجة وزينب ورفيدة الأسلمية.

◘ ◘ ◘

٥ المرأة تداوي الرجال وتقوم بالطبابة وتقاتل في المعارك مع الرجال

وشاركت المرأة المسلمة في الجهاد عندما دعاها الواجب، وسجلت للسابقات من المسلمات مواقف فريدة في البطولة والفداء، ومن هؤلاء.

الرُّبيِّع بنت معوّذ بن عفراء من الأنصار كانت تغزو مع النبي ﷺ فتداوي الجرحى.(١)

وأمر النبي الكريم بتجهيز خيمة خاصة لرفيدة الأسلمية لتداوي الجرحى بعد معركة الخندق، وكان ممن يداوى عندها يومذاك سعد ابن معاذ.(٢)

وصفية بنت عبد المطلب رأت رجلاً من اليهود يتجسس على المدينة يوم الخندق، فخرجت وحدها فضربته بعمود فقتلته وحدها.

١- أسد الغابة.٥/٤٥٠
٢- أسد الغابة .٥/٤٥٤

وأم سليم وعائشة كانت تنقزان القرب يوم أحد، وتفرغان الماء في أفواه القوم[1].

وأم العلاء الأنصارية كانت تعالج الصحابة، وعولج عندها عثمان بن مظعون حتى توفي.[2]

وكانت رفيدة الأسلمية أول امرأة تبادر إلى تأسيس مشفىً متنقلٍ، حيث كانت خيمتها المجّهزة بالمعدات الطبية والأدوية تنتقل مع المحاربين، وكان النبي ﷺ يثني على خبرتها الطبية ويرسل إليها الجرحى والمرضى.

▫ ▫ ▫

١- رواه البخاري في كتاب الجهاد باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال.
٢- رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مقدم النبي على المدينة.

٧

المرأة تغني أمام الرجال غناء ملتزماً بالفضيلة والعقيدة

عن عائشة قالت: «دخل عليَّ النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ فأقبل عليه رسول الله فقال: دعهما، فلما غفل غمزهما فخرجتا»[١]

وفي رواية أخرى قال لأبي بكر: **((يا أبا بكر إنَّ لكل قوم عيداً وهذا عيدنا)).**[٢]

وفي رواية أخرى قالت عائشة: وعندي جاريتان تدفّفان وتضربان.[٣]

وقد ورد حديث غناء الجواري وضربهما بالدف أمام النبي الكريم أكثر من اثني عشر مرة في صحيحي البخاري

١- رواه البخاري في الجامع الصحيح جـ١ كتاب العيدين ـ باب الحراب والدرق في العيد

٢- المصدر نفسه ـ باب سنة العيدين لأهل الإسلام حديث رقم ٩٠٩

٣- المصدر نفسه ـ حديث رقم ٤٤٩

ومسلم، وأكثر من خمسين مرة في الكتب التسعة، وأشار ابن حجر العسقلاني في كتابه (الإصابة) إلى المغنية، وترجم لها باسم: حمامة المغنية.

وعلــى الرغم مــن هذه الروايــات المتواتــرة الكثيرة فإن دلالات هــذا الحديث تبــدو غير موجهــة في عمل كثير من الفقهــاء، وظــل غنــاء المــرأة الملتزم مطــارداً كأنه ســبّة أو عار، وتم إغلاق هذا الباب بضراوة الأمر الذي فسح السبيل أمام فــنٍّ منحط، لا يبالي بالقيــم ولا بالفضائل، ولا يتورع عن فعل أي شيء في سبيل إثارة الغرائز.

عن الرُّبيّع بنت معوذ قالت: جاءنا رسول الله ﷺ فدخل عليّ غداة بُني بي ـــ يعني يوم زفافي ـــ فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفّهن، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر إلى أن قالت إحداهن: [وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد] فقال لها النبي ﷺ((**أمسكي عن هذه وقولي التي كنت تقولين قبلها**)).[1]

وعن ابن عباس قال: «مر رسول الله ﷺ بحسان بن ثابت ومعه أصحابه عند سماطين، وجارية له يقال لها: سيرين، تختلف بين السماطين وهي تغنيهم فلم يأمرهم و لم ينههم».[2]

١- أسد الغابة لابن الأثير.٥/٤٥٣
٢- أسد الغابة لابن الأثير.٥/٤٩٦

وقد أطال ابن حزم في المحلّى في الرد على من منع المرأة من الغناء وأورد عشرات الأدلة على جواز ذلك.[1]

وأخرج الطبراني من حديث عائشة أن النبي مر بنساء من الأنصار في عرس لهن وهن يغنين:

وأهدى لها كبشاً تنحنح في المربد
وزوجك في البادي وتعلم ما في غد

فقال: لا يعلم ما في غد إلا الله.[2]

وعن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يا عائشة! هل معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو**)).[3]

وفي رواية قال: ((هل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟ قلت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء ماسمنت عذاريكم[5]

ثم قال: أدركيهما يا زينب، لامرأة كانت تغني بالمدينة)).

١- المحلى لابن حزم، كتاب البيوع، مسألة ١٥٦٧
٢- نقلا عن فتح الباري ١٠٩/١١.
٣- رواه البخاري، كتاب النكاح، باب النساء يزففن العروس لزوجها
٥- انظر فتح الباري ١٣٣/١١.

ومن المعلوم أن هذا الغناء والدف كان في براح المدينة بحيث يراهن الرجال وهن يزففن الفتاة إلى زوجها.

وروى النسائي عن عامر بن سعد قال: «دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس، فإذا جوار يغنين فقلت: أي صاحبي رسول الله وأهل بدر، يفعل هذا عندكم؟» فقالا: «اجلس إن شئت فاستمع معنا، وإن شئت فاذهب فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس».

10 المراة تعلم الرجال وياخذون منها ويروون عنها

لا تكاد تخلو سيرة امرأة من الصحابة من ذكر من روى عنها من الرجال، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

عائشة بنت أبي بكر: من تلامذها: الزُّهري، وعروة بن الزبير، وأخذ عنها سائر الصحابة، ومواقفها مشهورة في انتصارها لما تراه حقاً من الرأي، واستدراكها على الصحابة، ورد روايات بعضهم، حتى جمع السيوطي ذلك في كتاب خاص سماه: (عين الإصابة في استدراكات عائشة مع الصحابة)، وأيضاً للزركشي كتاب أسماه:(الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة.)

أسماء بنت عميس: من تلامذها: عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وروى عنها عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس.

حفصة بنت عمر: من تلامذها عبد الله بن صفوان

وكانت أم الدرداء الصغرى زوج أبي الدرداء واسمها هجيمة الوصابية تلقي دروساً جامعة في المسجد الأموي، فيزدحم بالناس، وربما حضر مجلسها الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد خطبها من قبلُ الخليفة معاوية فرفضت،[١] وكان عبد الملك ابن مروان، يتردد عليها، ويعرف مترلتها ويهاديها، ومع ذلك فقد كانت تعتز بعلمها، ولا تخاف لومة لائم، سمعت مرة عبد الملك وهو الخليفة المطلق يلعن خادماً له فزجرته. وقالت: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة،»[٢] وخطبها عبد الملك فأبت، فكان يرسل إليها الأخبار تلو الأخبار، وبلغها مرة أنه ذكرها بسوء فقالت: «إن نُؤبَن بما ليس فينا فطالما مُدحنا بما ليس منا».

١- أسد الغابة لابن الأثير ٤٤٨/٥.
٢- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب ٥٤/٨.

١١ المرأة تقوم بمهام اجتماعية وقضائية

وقد قامت المرأة في مجتمع الإسلام الأول بمهام جليلة في الإدارة والحسبة، وفيما يلي طائفة من مشاركاتها في بعض هذه المهام:

عن يحيى بن أبي سليم قال: «رأيت سمراء بنت نهيك وكانت قد أدركت النبيﷺ عليها دروع غليظة وخمار غليظ، بيدها سوط تؤدب الناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر».(١)

وظاهر أن عملها هذا هو مسؤولية الشرطة اليوم، وإن إعداد مثل هذه المرأة اليوم يتطلب كليات للبنات لتدريبهن وإعدادهن، وأنماطاً مناسبة من الثياب والرياضة والإعداد البدني، وهذا كله للأسف غير وارد في فهم المتشددين الذين يرون خروج المرأة إلى الحياة العامة وهناً في الدين وقلة في اليقين.

◘ ◘ ◘

١- رواه الطبراني، انظر مجمع الزوائد.٩/٢٦٤ وقال: ورجاله ثقات

12 المرأة تركب مع الرجال على راحلة واحدة

عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «كنت أنقل النوى من أرض الزبير (زوجها)، فجئت يوماً والنوى على رأسي فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار فدعاني ثم قال: إخ إخ ليحملني النبي فلما رأى أني قد استحييت فمضى».[1]

وقد نقل ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) أن هذا الحديث نص في جواز ارتداف المرأة خلف الرجل على الراحلة في موكب الرجال.[2]

والسؤال هنا أين هذا التسامح النبوي الكريم من إصرار بعض الحركات الإسلامية على وجوب التفريق بين الناس في وسائل النقل والأسواق والحدائق؟

ولكن يبقى الجواب الجاهز دائماً أن ذلك زمان طاهر وهذا زمان فاجر ولا قياس، ولا أدري من الذي يحق له

١- رواه البخاري ــ كتاب النكاح ــ باب الغيرة
٢- فتح الباري للعسقلاني ٢٣٧/١٠.

محاكمة الأزمنة والأجيال، وهل كان الناس آنئذ بدون غرائز ثم رزقوها؟ وهل الهدي النبوي لا يصلح قدوة في مسائل التسامح؟ وهل هو قصر على مسائل الشدة والرهق؟

□ □ □

13 العروس تخدم الضيوف في وليمة العرس

تحت عنوان (باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس) أورد الإمام البخاري في (صحيحه) عن سهل قال: لما عرّس أبو أسيد الساعدي دعا النبي وأصحابه، فما صنع لهم طعاماً ولا قربه إليهم إلا امرأته أم سيد وهي عروس. ثم صنعت له شراباً من تمر فسقته ﷺ تتحفه بذلك.[1]

والنص يرسم بظلاله البهيجة صورة واضحة لحال التسامح التي كانت تعم المجتمع الإسلامي، بعيداً عن التزمت والتعقيد الذي فرضته الظروف المختلفة فيما بعد.

وإن من المؤسف أن تتسع قاعدة سد الذرائع لتجعل أي صلة فرح أو سرور في دائرة الريبة وظنون السوء، وكأن المسلم لا يملك من العاطفة إلا السعار الجنسي الهائج، وكأن المسلمة لا تعرف من اللطف والابتسام إلا مزالق الغوايةَ!.

١- رواه البخاري في كتاب النكاح باب: قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس. ومسلم في كتاب الأشربة، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتد

إن صلة منطقية بين المرأة والرجل في الحياة العامة ضرورية لكسر وهم انسحاق المرء في رغائب الجسد، والتأكيد على أن الإنسان روح وعقل أيضاً وليس محض جسد.

▫ ▫ ▫

١٤ المرأة تعود الرجال ويعودها الرجال

وعيادة المريض بين الرجال والنساء باب بشبه أن يكون مغلقاً تماماً في المجتمعات المحافظة اليوم، إذ تتحرج النساء من عيادة الرجال ويتحرج الرجال من عيادة النساء، ولكن النبي الكريم لم يكن يرى شيئاً من ذلك الحرج في سلوكه وهديه، فمن ذلك زيارته المشهورة لضُبَاعة بنت الزبير لما مرضت،[١]وزيارته لأم السائب،[٢]وزيارته لأم العلاء،[٣]وكذلك فقد أخرج النسائي عن أبي أمامة قالت: «مرضت امرأة من أهل العوالي فكان النبي أحسن الناس عيادة لها».[٤]

وظاهر أن هذا اللون من أدب السنة لا يشبه في شيء دعوات الفصم الصارم الذي يطالب به المتشددون، الذين يظنون أن ليس في علاقات الحياة الاجتماعية إلا دوافع الريبة والظنون.

□ □ □

١- رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين
٢- رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه.
٣- رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب عيادة النساء.
٤- رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب عدد التكبيرات.

15 اشتراك النساء والرجال على موائد الطعام

وهذا الباب أيضاً ينظر إليه على أنه تهاون في الشريعة، وأن الكمال في عزل النساء عن الرجال في الموائد، وهو أيضاً يفرض رهقاً على الرجال والنساء جميعاً، ويحول دون كثير من لقاءات الأرحام والأقارب، إذ لا تتوافر في ظروف البيوت الحديثة في زماننا إمكانية الفصل مما يؤدي تلقائياً إلى جفاف كثير من الأرحام إن لم نقل قطعها، وذلك من أجل سد ذريعة موهومة ،قد تكون غير موجودة بالكلية، وفوق ذلك فإن هذا كله خلاف ما كان عليه حال النبي الكريم، فقد اشتهرت مجالسه في المدينة على موائد يحضرها نساء ورجال دون أدنى نكير، من ذلك حضوره موائد أم سليم، وأم عمارة بنت كعب، وحضور جثامة المزينة، وهالة بنت خويلد على موائده، وكذلك القصة المشهورة في ضيف النبي الكريم لما نزل عند رجل من الأنصار، فاتفق مع زوجته على إطفاء

السراج وأوهماه أنهما يأكلان معه، وباتا طاويين ليكفيه الطعام، ونزلت بعدئذ آيات سورة الحشر في الثناء عليهما[1]:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. [الحشر٥٩/٩]

وقد أعجب النبي الكريم بصنيع هذا الصحابي وزوجته مع الضيف، وقال لهما: ((عجب الله من صنيعكما الليلة إلى ضيفكما))، ولا شك أن سرور النبي بذلك يكشف عن رضاه وإقراره لاشتراك الرجال مع النساء على الموائد.

وأوضح من ذلك أن النبي الكريم كان كثيراً إذا دعي إلى مأدبة يشترط بقوله: أنا وعائشة،[2]وهي إشارة جلية إلى رغبته في حضورها معه الموائد.

■ ■ ■

١- أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: ويؤثرون على أنفسهم.
٢- أخرجه مسلم، كتاب الأدب والصلة، باب ما يفعل الضيف، حديث رقم ٢٠٣٧

١٦ المرأة تجادل بالحجة حتى تحصل على تعديل دستوري

من العجيب أن يستمر بعض المتشددين في الإصرار على حجب المرأة عن التصويت ومنعها من الترشيح ومناقشة النواب والترافع البرلماني في وجه القوانين، في حين أنها كانت في الإسلام تجادل رسول الله ﷺ، وتترافع بحججها أمام فتوى الرسول ﷺ، حتى يترل نص قرآني يؤيد حججها ويقضي بتعديل الحكم المقرر في هذه المسألة من الفراق إلى الكفارة.

والقصة المقصودة هنا هي قصة خولة بنت ثعلبة التي جادلت رسول الله في حقها بالعودة إلى زوجها الذي ظاهر منها ــ الظهار يمين يحلف بها الرجل أن امرأته كظهر أمه عليه ــ وقد قدمنا القصة في مقدمة البحث، وظهرت فيها المرأة المسلمة وهي تجادل رسول الله ﷺ في بعض حقوقها التشريعية، ومع أن النبي أفتاها فيما سألته، ولكنها لم تكف عن

مجادلتها حتى نزل فيها قرآن كريم يؤيد رأيها واجتهادها وهو الآية:
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. [المجادلة٥٨/١]

ونؤكد هنا أن هذه القصة التي نزلت فيها سورة من القرآن (المجادلة) وسميت باسم صاحبة الحدث لا يمكن أن تكون بغير دلالة، أو أن تكون حدثاً طارئاً في سياق التشريع.[1]

إنها دعوة للمرأة المسلمة لتناضل وتكافح في تحصيل حقها، وحين تصطدم بعقبة تشريعية فإن عليها أن تمضي في طرح الحجج وتقديم البينات إلى أن تصل إلى العدالة المنشودة.

وقبل ختام هذا الفصل أجد من المفيد هنا أن تقرأ ما حرره الدكتور البوطي هنا حيث قال: ((كل هذا الذي ذكرته في هذا الفصل صحيح ومعروف، ولكن لاتنسَ أن الأحكام تستنبت في مناخها، والإسلام في مجموعه كل لايتجزأ، أوجد النسيج الاجتماعي السليم، وأذكركم بمزيد من الأنشطة النسائية، كاشتراك المرأة في الأعمال الفنية المختلفة...

ولكن عندما تميع الأخلاق، ويسود الاستهتار، وتعود الروادع الدينية ضعيفة وغريبة، تصبح الوقائع التي ذكرتها في عصر رسول الله مزالق في هذا العصر إلى مزيد من الاستهتار.

١- القصة مشهورة في كتب التفاسير والسنن، أوردها جميع الأئمة

وأضرب لك مثلاً صغيراً ينطبق على كل ماقد ذكرته هنا: عندما تسألني فنانة تائبة عن حكم الشريعة في العودة إلى التمثيل، أقول: عندما تكون القصة سليمة من الشوائب، والمخرج الذي تتعاملين معه ملتزماً، ومجموعة الممثلين والممثلات في انسجام مع التزامك وسلوكك، والجو الفني العام غير موبوء، فأقبلي واتكلي على الله.

لذا، فأنا مع التذكير بهذا كله، على أن تركز مع ذلك وقبل ذلك، على ضرورة تحقق ذلك في مناخ إسلامي صالح، أما التقاط هذه المشاهد التي كانت موجودة فعلاً في عصر ازدهار الإسلام وحكمه، والدعوة إلى تطبيقها اليوم في عصر غياب الرادع الإسلامي، والتفلت من ضوابطه، وكثرة المتبرمين به، فلن تكون في الواقع الحقيقي إلا تفريطاً آخر)). ا.هـ

ولاشك أن الأمة إنما تسعد بنعيم هذا اليسر والمرونة عندما تكون الفضيلة والعفاف في الموقع الذي يحترمه الكافة شعوباً وحكومات وتشريع، وعندما يقوم السلوك الاجتماعي على أساس الخوف من الله، والعمل ابتغاء رضاه، والاستعداد للدار الآخرة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ [الإسراء١٧/١٩]

◘ ◘ ◘

سلسلة الفقه بين الأصل والصورة

الخلاص من الأقفاص
((دفع أوهام وشبه))

الدكتور محمد الحبش

١٦ السفر دون محرم

((يوشك أن تخرج الظغينة الحيرة إلى الحجاز، مامعها جوار، لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها))

لعل من أشد المسائل رهقاً على المرأة اليوم هو أمر سفرها واقامتها وتنقلها، وهو ما يربطه كثير من الفقهاء بوجود المحرم المرافق لها، عملاً بالحديث: **((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً فوق ثلاثة أيام فصاعداً إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها))**[1].

ويقضي الفهم الظاهري لهذا النص منع المرأة من السفر مطلقاً إلا بوجود المحرم، وهو ما لا يتيسر لكل امرأة، ومن غير المعقول أن تعطل طاقة اجتماعية كاملة لمجرد تحقيق رفقة طاقة أخرى، الأمر الذي يستلزم كف المرأة عن الارتحال في طلب العلم، أو الإقامة في نظم السكن الجامعي، أو الخروج إلى الحج والعمرة، أو السفر إلى زوجها في مكان إقامته، وهو

١- رواه البخاري في كتاب المناسك ــ باب المرأة تحج بغير محرم، رقم الحديث ١٧٢٦ عن أبي سعيد الخدري، ورواه كذلك مسلم والترمذي وله لفظ: مسيرة يوم وليلة، وفي رواية لأبي داود: لا تسافر بريداً، وهو نحو عشرين ميلا.

ما يجعل سائر الطالبات والموظفات يرتعن في دائرة الحرام والإثم، ويعانين من عقدة الذنب طيلة نشاطهن وهو ما ينعكس عليهن بأسوأ الآثار.

فإلى أي مدى مضى الفقه الإسلامي في إعمال هذا الحديث، وهل دلالته الظاهرة محل اتفاق بين المسلمين، حتى لا تجوز مخالفته على ما فيه من رهق وعناء.

ويروي الناس اليوم عن الفقهاء التشدد في هذه المسألة حتى لم يشتهر إلا القول بتحريم ذلك كله، وهو ما أدى إلى تعطيل طاقة المجتمع، وعاد بأفدح الخسائر على المرأة والرجل جميعاً، وخاصة المرأة في الأرياف التي حرمت العلم والتحصيل والتدريب المهني، وهو ما أسهم بمجموعه في إضعاف شخصية المرأة وهوانها.

ومع أن الحديث متجه إلى غاية شريفة ونبيلة وهي حماية المرأة من مزالق الفتن، وإحصانها من أن تكون مطمعاً لأهواء العابثين، ولكن مقارنة المصالح والمفاسد في المسألة يجعلك لا تتردد في مراجعة الأمر والبحث عن سبل أخرى لتحصين المرأة لا تستلزم هذا الرهق المضني.

لقد كان السفر في عهد النبي ضرباً من المشقة القاسية، وكان سفر المرأة ثلاثة أيام بلا محرم يشبه أن يكون مفسدة مؤكدة، وخطراً حقيقياً على المرأة، ولم تكن قد جدت الحاجة لارتحال المرأة في تحصيل العلم والمعرفة في المدن.

ولكن الفقه الإسلامي بدأ يدرك مع الأيام الحاجة الملحة لانتقال المرأة، ويمكن هنا أن نورد طرفاً من خيار الفقهاء في هذا السبيل.

نظر الإمام الشافعي في مسألة حج المرأة إلى غاية هذا القيد وهو تحقق الأمن للمرأة فقال: «لا يتعين هذا ــ أي المحرم ــ بل الواجب هو ما يتحقق به الأمن عليها كأن تحج مع نسوة ثقات».(١)

ثم خطا الفقه خطوة أخرى فأجاز حج التطوع وسفر الزيارة والتجارة وغير ذلك من الأسفار غير الواجبة. فقيل: تخرج مع نسوة ثقات.(٢)

ولكن جمهور الفقهاء ظلوا يقولون بعدم جواز ذلك.

ثم خطا الفقه خطوة أخرى في المرأة الكبيرة غير الشابة فقال الباجي: تسافر كيف شاءت بلا زوج ولا محرم،(٣) ونقل هذا الرأي عن القاضي عياض.(٤)

أما الإمام الأوزاعي فقد ذهب إلى تحرير العلة من هذا المنع بخوف الفتنة، وانفراد المرأة في السفر البعيد مع جماعة من الرجال، فقال: ولا شك أن القوافل العظيمة تقوم مقام المحرم في تحقيق الأمن للمرأة ولو مع فقد المحرم.(٥)

١- مسند الإمام الشافعي بترتيب السندي، الجزء الأول، باب فيما جاء في فرض الحج وشروطه
٢- المصدر نفسه، ونظر كذلك شرح صحيح مسلم للنووي كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم.
٣- المصدر نفسه، وأنظر كذلك شرح صحيح مسلم للنووي في الموضع نفسه.
٤- عون المعبود في شرح سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب في المرأة تحج بغير محرم
٥- المنتقى شرح الموطأ للباجي المالكي وقد عزاه إلى الإمام الأوزاعي.

وبمثله نقل الترمذي عن مالك بن أنس والشافعي: إذا كان الطريق آمناً فإنها تخرج مع الناس في الحج،[١] وهذا القول نفسه نقله النووي في شرح صحيح مسلم عن عطاء وسعيد بن جبير وابن سيرين ومالك والأوزاعي والشافعي: لا يشترط المحرم بل يشترط الأمن على نفسها.[٢]

بل إنه مضى إلى أكثر من ذلك فقال: قد يكثر الأمن ولا تحتاج إلى أحد، بل تسير وحدها في جملة القافلة وتكون آمنة[٣]

وسئل الإمام مالك عن المرأة تريد الحج وليس لها ولي؟ قال: تخرج مع من تثق به من الرجال والنساء.[٤]

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): استدل بحديث عائشة: «أحسن الجهاد وأجمله الحج» على جواز حج المرأة مع من تثق به ولو لم يكن زوجاً ولا محرماً.. وقد أذن عمر لنساء النبي في الحج من غير محرم ولم ينكر عليه.[٥]

وهكذا فإنه يمكن أن نرى من خلال هذه المسألة أن الفقهاء الذين كانوا يجتهدون في تحرير فقه الحياة لم يكونوا ينظرون إلى النص المقدس على أنه غلّ آسر بقدر ما كانوا

١- شرح العلل للترمذي المجلد الثاني ــ أبواب مختلفة في النكاح ــ باب في كراهة سفر المرأة لوحدها.

٢- شرح صحيح مسلم للنووي ــ كتاب الحج ــ باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره

٣- المصدر نفسه

٤- المدونة الكبرى. ٤٥/١

٥- فتح الباري . ٤٤٦/٤

يرونه نوراً هادياً يستأنسون به ولا يسرمدونه، يجتهدون في فهمه في إطار مقاصده وغاياته، وليس في إطار دلالة ظاهر النص فحسب.

وعلى هدي خيارات الفقهاء فإن من اليسير القول إذن إن هذا الحكم معلل بعلة فقد الأمن، وعليه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، وبذلك يدور الحكم مع علته وجوداً وعدماً، ولا شك أن الأمن الذي يتوافر اليوم للفتاة المحتشمة تسافر للدراسة، وتقيم في سكن محتشم مع مجموعة من الطالبات، أو تسافر بالطائرة إلى عمرة أو حج أو اللحاق بزوج أو والدين، في شركات خاصة مأمونة مضمونة، وفق نظم الإياتا الضامنة، لا شك أن ذلك على اختلاف أشكاله أصبح مأموناً غاية الأمن في زماننا، وهو ـــ بكل تأكيد ـــ أقل مجازفة من ركوب المرأة على ظهور الإبل واجتيازها الصحراء أياماً ثلاثة برفقة محرم قد يكون صبياً مراهقاً أو شيخاً ضريراً طاعناً في السن، لا يملك أن يذب عن نفسه.

وقد وردت آثار كثيرة عن النبي تشير إلى أن الأمن سيغلب على الأرض وأن المرأة ستسافر من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير أن يصحبها أحد، من ذلك ما أخبر به النبي ﷺ عدي

بن حاتم بقوله: ((**يوشك أن تخرج الظعينة من الحيرة تؤم البيت لا جوار معها**)).[1]

ولا شك أن بشارة النبي بهذا، واستبشاره به قرينة قوية في أنه لو انتفى الخوف فإن سفر المرأة من دون محرم وارد وممكن، بل هو من أعظم إنجازات الإسلام في الأرض.

وليس مقتضى ذلك إعفاء المرأة من مسؤوليتها، بل إن رعاية هذه الاعتبارات يجعل المرأة مباشرة في موقع المسؤولية، إذ أنها هي المكلفة أصلاً باجتناب مواضع الفتنة، ورب فتن طاغية وفرتها التكنولوجية الحديثة للرجل والمرأة على السواء وهما في الحضر، بل في حجرة الدار حيث دخلت المحطات الفضائية الماجنة المسفة، التي تقدم أشكال الخطيئة كما يقدم طبق (البيتزا)، وكذلك نظم الإنترنت والنت فون والنت ميتنغ وغيرها مما ستجود به مع الأيام هذه التكنولوجية المجنونة، مما لا يتطلب سفراً ولا ظعناً ويجعل مظنة الفتنة في الدار أكبر من المظنة في السفر.

وهكذا تقف المرأة والرجل على قدم سواء في تحرير المسؤولية الشرعية والاجتماعية، وتحديد مواقع الريبة التي يجب اجتنابها، وتقرير الذرائع التي يجب سدُّها، و هي بلا ريب

مسؤولية رجال القرار أيضاً في المواقع الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية والتشريعية إذ هم يتحملون جانباً دقيقاً من مسؤولية رعاية العفاف الاجتماعي الذي هو من أكثر خصائص هذا الشرق، وشعائر الدين، وهو السبيل المؤكد للحفاظ على التماسك الأسري والدفء العائلي الذي فقده المجتمع الغربي في غمار الحياة المادية الصاخبة.[1]

▫ ▫ ▫

١ – في سورية عدد من المعاهد الشرعية الإسلامية وفي كل منها قسم خاص للطالبات الأجانب، وهؤلاء يأتين من بلاد بعيدة زرافات ووحداناً، ويستقبلن بالثناء والترحاب على الرغم من قدومهن من دون محرم.
ولكن من المؤلم أن كثيراً من المدرسين في هذه المعاهد نفسها يصرون على منع سفر المرأة من دون محرم واعتبار ذلك من الكبائر، أخذاً بظاهر النص دون التفات إلى مقاصده وغاياته.

2 شقائق الرجال

يحظى اصطلاح (منع الاختلاط) بحساسية بالغة لدى شباب الحركات الإسلامية، إلى حد يجعل هذه المسألة معيارية وحاسمة في تقرير التزام المجتمع بالإسلام أو تفلته منه.

وعلى سبيل المثال فقد مضت عدة بلدان تلتزم الشريعة في الحاكمية إلى تحقيق الفصل التام بين الذكور والإناث في الوظائف والتعليم والدراسة وسائر المناسبات الاجتماعية، وكذلك تم فصل الجنسين فصلاً تاماً في المساجد حيث شرعت للنساء مداخل خاصة، ووضعت على أجنحتهن ستور ثقيلة، تحول حيلولة تامة بين سائر أشكال اللقاء والمحادثة بين الرجال والنساء.

بل إن بعض البلدان الإسلامية، فصلت بين الذكور والإناث في وسائل النقل، والفنادق والحدائق والمطاعم

والمرافق العامة، وذلك كله على الرغم من الإلزام الصارم بارتداء الجلابيب السود، التي تستر كل شيء من المرأة.

وليس ثمة أدنى مبالغة إن قلنا: إن أماني أخرى لا تزال مستكنة لدى المتشددين في تكريس أسواق وشوارع وأرصفة للنساء دون الرجال أو للرجال دون النساء، أو في اتجاه منع المرأة من الخروج إلى سائر أنشطة الحياة بالكلية.

وعلى الرغم من الحرج المضني الذي يفرزه هذا الخيار في المجتمع فإن كثيرين ينظرون إلى ذلك على أنه تمسك بالشريعة،وأنه يعكس صدق المجتمع في الالتزام بالإسلام.

ولكن إلى أي مدىً ينسجم هذا الأسلوب الصارم مع هدي النبي الكريم في الحياة الإجتماعية؟..

في الواقع فإن هذا الفصل الصارم بين الجنسين لم يكن حال هذه الأمة يوم كان الرسول الكريم هو الذي يقود الحياة الاجتماعية.

وللأسف فإن من الضروري قبل البدء بالإجابة من الإشارة هنا إلى أن المتشددين لا ينكرون ذلك، ولا يجحدون أن مجتمع النبي الكريم كان منفتحاً متسامحاً في هذه المسائل، ولكن الذي يحتم التشدد الآن هو أمران اثنان:

الأول: فساد الزمان وكثرة الفتن، وهي دندنة صار عمرها اليوم أكثر من ألف وأربعمائة وعشر سنين، إذ نردد هذه العبارة منذ مات الرسول الكريم، وهي تتعاظم طرداً كلما ابتعدنا عن عصر النبوة، وهي حجة فقه الشدة كلما أراد أن يتعسف في تحريم مباح، وكأن الله خلق الدهر كله فساداً وظلمة، ولم يفلح نور النبوة أن يضيء أكثر من أيام معدودات، وكأن اليأس والقنوط هو الذي ينبغي أن يحكم حياتنا بدلاً من البشارة والتفاؤل.

الثاني: إن سائر ما سنورده من أخبار ومواقف متهم من قبل فقه الشدة بأنه منسوخ لا يصلح للتشريع، وأن بعض تصريحات متشددة نسبت إلى الرسول الكريم تنسف سائر ما تميزت به حياته من التسامح واليسر والمرونة، وتروج هنا قاعدة أن العمل على ما مات عليه الرسول!..

وإنما بادرتك بإيراد هاتين الحجتين لأنك ستلقى إحداهما أو كلتيهما دائماً جاهزة للرد على سائر المواقف الجريئة التي نوردها للرسول الكريم، وهو منهج يجعل سيرته الكريمة صلى الله عليه وسلم وسننه الشريفة غير ذات دلالة، ويختزل الإسلام كله في خيار واحد هو الشدة والتصلب مهما عاد ذلك على الناس برهق وضنى.

وفي مثال قريب فإنه يتم اليوم تصميم المساجد بحيث يراعى فيها الفصل التام بين الإناث والذكور في المداخل والمخارج والأدراج والقاعات، وتكون عادة في طابق آخر، ويحول بين النساء والرجال ستور محكمة تمنع سائر أشكال الاتصال، فيما تبدو المداخل المشتركة الباقية مشاهد بغيضة ينبغي أن يتم فصمها بأي ثمن ولو أدى ذلك إلى إخراج النساء من المساجد بالكلية.

ولكن المسجد الوحيد الذي بقي على الحال التي تركه عليها النبي الكريم هو المسجد الحرام (الكعبة)، وحول هذه الكعبة يطوف الرجال والنساء معاً، في صورة تامة من الاختلاط، فتطوف النساء بالبيت ويسعين بين الصفا والمروة ويؤدين الصلاة ويستمعن الخطبة، وذلك في زحمة الرجال ومشاركتهم على الرغم من وجوب سفور الوجه، وتحريم النقاب!..

ولكن هذا المشهد الذي عاش عليه النبي (ومات عليه أيضاً) لا يتكرر في أي مسجد آخر، وتتم مكافحته بضراوة وعنف على أساس فساد الزمان وشيوع الفتن.

وإني لا أشك أن لو انتهى الأمر إلى رأي بعض فقهاء الشدة لمنعوا المرأة من الطواف بحضرة الرجال، ومن السعي والصلاة كذلك، ولو كلفهم ذلك تخصيص الحرم يوماً للرجال ويوماً للنساء، أو التفكير ببناء حرم خاص للنساء لا يشاركهم فيه الرجال!..

وهكذا فإنه يمكن القول إن الاختلاط المأذون به في حرم الله الشريف وفي ظلال قدسه وأمنه وسلامه أصبح محرّماً ليس في المساجد فحسب، بل على المدارس والجامعات والمرافق والحدائق والمطاعم التي يديرها فقه الشدة.

ولست أخول نفسي هنا الخوض في بيان الأثر السلبي لتربية الكبت والفصل الصارم على الحياة الاجتماعية، فذلك ما تنهض به دراسات إحصائية واجتماعية متخصصة، مع أني أسمح لنفسي أن أشير هنا أن هذا الأسلوب من الكبت ينبغي مراقبته من الخارج أيضاً لا من الداخل فقط، فحين يتيسر لهذا الشاب أن يغادر هذا المجتمع المغلق إلى مجتمع آخر فإن النتائج تجيء عادة مخيبة للآمال، نقيض ما ألزمه به مجتمع الحسم والصرامة، ولو أتيح للدراسات الإحصائية المحايدة أن تقول كلمتها في هذا الوجه فإن الأرقام هنا ستكون مخيفة ومفجعة.

ولكني سأكتفي هنا بتقديم الأدلة من السيرة النبوية والفقه الإسلامي للإشارة إلى أن الاختلاط المحتشم العفيف هو الأصل في منهج النبي الكريم، وأن منع الاختلاط ومكافحته طرأ بعد عصر النبي الكريم وخلاف سنته وهديه.

◘ ◘ ◘

اشتراك
الرجال والنساء
في حرم المسج
ددون حاجز

عن ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، وكان بعض من القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا رجع نظر من تحت إبطيه[1]، فنزلت الآية ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ** ﴾[الحجر ١٥/٢٤]

وقد بقي المسجد على هذه الحال إلى وفاة النبي الكريم، ولم يروَ أنه أمر بشيء فيه.

ومع أن صلاة المرأة في المسجد كانت تثير غيرة الأزواج، ولكن لم يكن ثمة سبيل إلى منعهن بعد أن قال النبي الكريم: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»، وروى الزّهري أن عاتكة بنت زيد كانت زوجة عمر بن الخطاب، وكانت تصلي

١- رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن. سورة الحجرحديث(٥١٢٨)

في المسجد، وكان عمر يقول لها: «والله إنك لتعلمين أني لا أحب هذا، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني، قال: إني لا أنهاك، قالت ولقد طعن عمر يوم طعن وإنها لفي المسجد»[1].

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن»[2]

ولا شك أن الإلحاح على المرأة بحضور المساجد من أظهر الأدلة على رغبة النبي المباشرة في مشاركة المرأة في الحياة، إذ المسجد آنئذ دار المعرفة والعبادة والنشاط الاجتماعي والسياسي، وبالتأكيد فإنّ حضورهن المساجد يشمل ذلك كله، وهذا المعنى الذي نشير إليه لا يبدو أن المساجد تنهض به اليوم، إذ يقتصر نشاطها على الجوانب التعبدية، وبعض فرص التعليم الديني.

وعلى الرغم من انفتاح النبي الكريم في مشاركة المرأة في الحياة، وأمره الصريح للرجال بعدم جواز منعهن من المساجد، والمساجد آنئذ حرم واحد لا ينفصل بعضه عن بعض فإن فقه الشدة مضى إلى منع ذلك كله، وتم ترجيح رأي

١- مصنف عبد الرزاق ٣/ ١٤٨.
٢- البخاري كتاب أبواب صفة الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والناس.

ابن مسعود الذي رواه عنه الطبراني موقوفاً، ورفعه غيره: ((خير صلاة النساء في قعر بيوتهن! وصلاتها في حجرتها أفضل من صلاتها في دارها، وإن المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان!..))

وهكذا فإن واحداً من أنجع الوسائل التي تخيرها النبي الكريم لخلق مشاركة كاملة للمرأة في الحياة عن طريق حضورهن المساجد تم إلغاؤه بتعسف شديد من قبل فقه الشدة عبر أمرين اثنين:

الأول: ضمور رسالة المساجد واقتصارها على الجانب العبادي وحده

الثاني: تغييب المرأة عن حضور المساجد وإرغامها على المكث في الدار.

هذا وإن خروج النساء إلى المساجد كان يشمل الفجر والعشاء وما تيسر من مواقيت الصلاة، وبوسعك أن تتصور مدى مشاركة المرأة في الحدث الاجتماعي وهي تعايشه كل يوم مرة على الأقل.

ويجب القول: إن هذا المنهج المتعسف في تغييب المرأة ظهر قديماً ولكن كان جيل الوعي الإسلامي الأول

بالمرصاد له، وفيما يلي مثال منه:

عن عبد الله بن عمر قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: ((لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد)) فقال ابنه بلال: والله لنمنعهن، فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله وتقول: لنمنعنهن»(١).

والذريعة التي يتذرع بها المتشددون اليوم في تفضيل لزوم المرأة دارها إنما هي فساد الزمن، وخشية الفتن، وفي الواقع فإن هذا إفراط في إعمال قاعدة سدّ الذرائع، إذ لا ينبغي ترك خيرٍ محقق خشية ضررٍ موهوم، وقد حصل في زمن النبي الكريم أن امرأة تعرضت لحادثة اعتداء من أثيم غادر تربص بها عند صلاة الفجر فعدا عليها، ومع ذلك فإن النبي الكريم بعد أن حاكم الخاطئ في المسجد، لم ينه النساء عن الخروج إلى المساجد، وإنما دعاهن أن يكن أكثر وعياً وحذراً.(٢)

وينبغي أن نذكر مرة أخرى بأن المسجد كان في الواقع مركز النشاط الاجتماعي والسياسي والديني في الحياة العامة.

١- رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد
٢- نظر سلسلة الأحاديث الصحيحة .٢/حديث رقم ٩٠٠

٤ المرأة تصلي إماماً بالرجال

وهذه المسألة من أكثر ما يثير الدهشة لدى القارىء الكريم، إذ لا يتصور أن أحداً من الفقهاء يرضى بذلك، ولكن الواقع أن هذا الخيار كان مشتهراً لدى الأمة في عصر المجد الفقهي، إذا كانت المرأة أعلم من الرجال وأقرأ.

ومستند ذلك حديث أم ورقة المشهور أن النبي ﷺ كان يزورها في دارها، وجعل لها مؤذناً يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها[١]وفي رواية البيهقي: وأمرها أن تؤم أهل دارها في الفرائض.

قال الفيروزأبادي في (عون المعبود): ثبت من هذا الحديث أن إمامة النساء وجماعتهن صحيحة،[٢]وقال الصنعاني في (سبل السلام): والحديث دليل على صحة إمامة المرأة أهل دارها وإن كان فيهم الرجل، فإنه كان لها مؤذن، وكان

١- رواه أبو داود في سننه عن أم ورقة، باب إمامة النساء
٢- عون المعبود في شرح سنن أبي داود . ٢/١١٢

شيخاً كما في الرواية، والظاهر أنها كانت تؤمه وغلامها وجاريتها، وذهب إلى صحة ذلك أبو ثور والمزني والطبري، وخالف في ذلك الجماهير(١)

ثم ذكر الصنعاني أن الطبري إنما أجاز للمرأة إمامة الرجال في صلاة التراويح إذا كانت أقرأ القوم مستدلاً بحديث أم ورقة السالف، ورد الحديث الذي انفرد به ابن ماجه((**ولا تَؤُمَّنَّ امرأة رجلاً**)) بأنه حديث واه ضعيف.(٢)

وقال ابن تيمية: أجاز الإمام أحمد في المشهور عنه أن المرأة تؤم الرجال لحاجة مثل أن تكون قارئة وهم غير قارئين، فتصلي بهم التراويح، كما أذن النبي ﷺ لأم ورقة أن تؤم أهل دارها(٣)

ولا شك أن هذا الذي نرويه عن الإمام الجليل الطبري شيخ المفسرين، وعن أبي ثور والمزني وغيرهم هو خيار ذهبوا إليه، ولم يأخذ به من فقهاء المذاهب إلا الإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنه.

قال أبو الخطاب: وقال أصحابنا تصح (إمامة المرأة للرجال) في صلاة التراويح، قال في (مجمع البحرين):

١- سبل السلام للصنعاني ٢/٣٥، ونقل ذلك عنهم أيضاً الشاشي في حلية العلماء ٢/١٣٠

٢- سبل السلام للصنعاني ٢/٢٨

٣- القواعد النورانية لابن تيمية ٢/٧٨

اختاره أكثر الأصحاب، وقال الزركشي: منصوص (الإمام) أحمد، واختيار عامة الأصحاب أنه يجوز أن تؤمهم (المرأة) في صلاة التراويح، وهو الذي ذكره ابن هبيرة عن (الإمام) أحمد، وجزمبه في الفصول، والمذهب والبلغة.[1]

ولست هنا بصدد ترجيح الآراء، ولكني أتخير من هذا الفقه الغزير تخيراً، ومرادي التذكير بما قدمته من قبل أننا نتجاهل في كثير من الأحيان خيارات فقهية قال بها أئمة محترمون لم يكونوا يعالجون المسائل بالرّهق ذاته الذي يطالب به خيار الشدة

ومع ذلك فقد مضى فقه التشدد إلى الغاية في منع ذلك، إفراطاً في إعمال قاعدة سد الذرائع، حتى قال سليمان بن يسار: «لا تؤم المرأة النساء ولا الرجال في فرض ولا نافلة!.»[2]

بقي علي أن أتساءل فيما إذا كانت امرأة واحدة اليوم تقبل أن تؤم الرجال في الصلاة؟ أو أن رجلاً واحداً يقبل أن يأتم بامرأة؟

١- الإنصاف للمرداوي. ٢٤٦/٢، ثم أورد تعليل ذلك فقال: إن كانت قارئة وهم أميون، قيل إن كانت أقرأ من الرجال، وقيل إن كانت عجوزاً أو ذات رحم، ثم قال: واختار الأكثر صحة إمامتها في الجملة لخبر أم ورقة.

- نقله ابن حزم في المحلى . ١٢٨/٣ وقال: وهذا قول لا دليل على صحته وخلاف لطائفة من الصحابة لا يعلم لهم مخالف.

والواقع أن ذلك عسير، وهو نتيجة طبيعية لما ألزمت به المرأة عبر القرون الأخيرة من موقف تبعي ضعيف، يختلف تماماً عن الموقع الذي بوأه الإسلام للمرأة في أيام الرسالة المجيدة.

ولاشك أن دفع المرأة للإمامة ليس غاية نرمي إليها بقدر ماهو مثال من أمثلة كثيرة تؤكد قعودنا عن منح المرأة حقوقها الطبيعية التي ينبغي أن تناها.

◘ ◘ ◘

5 القول بنبوة المرأة

ولدى الحديث عن إمامة المرأة فإن المتوقع أن يشتد كثيرون في إنكار دلالات ذلك على أساس أنه خلاف ما تعودناه، ولكن ماذا إذا نقلنا خيارات أئمة موثوقين في مسألة أدق وأجلى وهي نبوة المرأة.

إن الذي انتهى إليه التعليم الديني اليوم هو أن الأنبياء ذكور، وأن المرأة لا يمكن بحال أن تكون نبياً، ونقل الكرماني الإجماع على ذلك.

ولكن ما ينبغي التذكير به دوماً هو أننا نتخير من مدارس الفقه الإسلامي وجهاً واحداً، ثم يبدو لنا أن خلافه شذوذ وضلالة.

قال الحافظ ابن حجر إمام المحدثين: «قوله ﷺ لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، استدل بهذا الحصر على أنهما نبيتان لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء،[١] ومثل ذلك ما اختاره ابن حزم أيضاً من القول بنبوة النساء[٢]».

١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧. /٢٥٨

٢- انظر ابن كثير في التفسير، سورة يوسف١٠٩

وأيضاً فإن شيخ المفسرين القرطبي قال: الصحيح أن مريم نبية لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين.[1]

ونقل عن الأشعري أنه نبئ من النساء ست: حواء، وسارة، وأم موسى وهاجر وآسية ومريم.[2]

وهكذا فإن مضي أئمة كبار لا يشك في مترلتهم كالقرطبي وابن حجر وابن حزم إلى القول بنبوة المرأة وهو القول الذي لا نصيب له من التأييد في زماننا يكشف لك أننا في الواقع نغلق عن عمد خيارات عظيمة في الفقه الإسلامي تقرر مساواة فريدة للمرأة نهض بها فقهاء المجد الإسلامي قبل أكثر من عشرة قرون.

وبينما منحها الفقه الإسلامي المجيد رتبة النبوة فإننا الآن لا نزال نتناقش حقها في الانتخاب، وللأسف فإن الإسلاميين هم الذين يناضلون من أجل حرمانها من حق الانتخاب فيما منحها أئمة كبار في الفقه الإسلامي رتبة النبوة!..

ولاشك أن هذه المسألة محض مطالعة نظرية لاظلال واقعية لها، ولسنا في وارد مبعث نبيات ولا أنبياء، وقد اتفقت الأمة على ختم النبوة إن في إطار الذكور أو الإناث.

◘ ◘ ◘

١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تفسير آل عمران آية ٤٢

٢- تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، كتاب الأطعمة، حديث ١٨٣٨

وفي الختام...

أودّ أن أشير إلى أن ما أوردته من شواهد مشاركة المرأةفي عصر الرسالة ليس إلا أمثلة ملهمة، وأن المطلوب إنما هوالوعي بدلالاتها في السياق التاريخي، والنهج على منوالها احتذاءً وأسوة، وليس المراد بالطبع التوقف في كل مطلب على ورودحدث مشابه يقاس عليه، فمن أين للظروف المحدودة زماناً ومكاناً في الحجار وهي طرف من جزيرة العرب أن تكون معياراً للسلوك البشري في عالم يمتد طولاً وعرضاً في القارات السبع، وتتفاوت درجات الحرارة فيه من خمسين تحت الصفر إلى خمسين فوق الصفر، وتسود فيه أكثر من ألف لغة ألف قومية، وتتغير معالمه كل قرن عدة مرات، ويسكن بعض أهله في بيوت القش وآخرون في ناطحات السحاب ،ويبلغ طول النهار في بعض أطرافه اثنين وعشرين ساعة وفي مناطق أخرى لا يزيد عن ساعتين .

إن هذه الشواهد ليست إلا معالم على الطريق ،وعلى الأمة في كل جيل أن تبعث آفاق تحرر المرأة وانطلاقها في جميع الظروف انطلاقاً من المجد الذي حققته في عصر الرسالة.

وبعد..

فقد أوشكت أن أضع قلمي بعد هذه الجولة في كتب الفقه الإسلامي فيما يتصل بقضايا المرأة .

وأذكر مرة أخرى أن إصراري على تلمس الحلول المناسبة للمرأة في الفقه الإسلامي إنما هو نتيجة قناعتي بغناه وثرائه،ومعرفتي برصيد الثقة الذي يحظى به هذا الفقه الإسلامي في حياتنا الاجتماعية.

إن المشكلة بوضوح أننا نتخير رؤية واحدة من هذا الفقه العظيم،ونتجنب عن عمد رؤىً كثيرة، بل إننا نعمد إلى طمس الخيارات التي أعرض عنها فقهاؤنا المرجحون في مرحلة تاريخية ما، ووصمها بالشذوذ أو الانحراف على الرغم من أنها قد تكون أقرب إلى هدي النصوص وأكثر استجابة لمتطلبات زماننا وهكذا فإن اختيار الرجل قطعة من عقله ، واختيار الأمة أثرمن واقعها في النهوض أو السقوط، وصورة لرغائبها في الوثوب أو الخمول.

على أني في ذلك لست داعية قعود عن الاجتهاد بدعوى غنى المصادر،بل أجد نفسي من أكثر المتحمسين لإطلاق باب الاجتهاد إلى الغاية ،وليأكل الفكربعضه بعضاً فالبقاء للأصلاح والعاقبة للمتقين ،والناس والتاريبعدئذ بسبيل الحكم في كل اجتهاد أرشد أم غي؟!

إن قعودنا عن الاجتهاد لعجيب، وأعجب منه قنوطنا منه وإياسنا من رجائه، والأشد عجباً قعودنا عن التخيرمن اجتهاد السابقين الذين كفونا مؤونة هذا التقحم،إذ بسطوا لنا اجتهادهم وفكرهم نثاراً لنتخير منه في كلجيل.

إنني لم أرو مسائل الفقه عن متهم في دينه أو أمانته،ولا عن مشكوك في صدقه أو سلوكه ،إنهم الأئمة ذاتهم الذين نروي عنهم فقه الشدة، ولكننا في العادة نقلدهم فيما تشددوا فيه، ونرد أقوالهم ــ أو نلتمس لهم المعاذير ــ فيما تسامحوا فيه.

أو قل ــ بعبارة أدق ــ إننا نتبع آراءهم علىعواهنها فيما أصابوا فيه وفيما أخطؤوا فيه، ونحتكم إلىسلطان الكلمة المنقولة من غير أن يكون للزمان والمكان والواقع الاجتماعي أدنى سلطة حتى في تحرير المناط أو تخريجه أو تنقيحه .

إن المرأة المعاصرة تعامل اجتماعياً في الواقع بإثنية صارمة،إما قديسة وإما عاهرة، وبالأسلوب ذاته تعامل الدراسات التي تكتب حول المرأة، فهي إما ملتزمةصارمة، وإما إباحية ماجنة، وهذا في الواقع أسلوب جد خاطئ يؤدي حتماً إلى تعميه الحقيقة، وإصدار الأحكام المسبقة، وهوعلى كل حال خلاف المنهج القرآني :﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف/١٦]

وخلاف هدي النبي الكريم ((**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها**)).

وهكذا فإن الدعوة إلى إصلاح مفاهيمنا عن المرأة ليست بحال من الأحوال دعوة إلى تلفت المرأة من العفاف الاجتماعي والانغماس في الشهوات ولاستهتار بالقيم، ولا هي بالضرورة دعوة إلى التساهل في جميع المسائل ،بحيث تتبدد الضوابط الضامنة للحشمة والعفاف، بل إن كثيراً من الإصلاح يتطلب التشدد في مسائل كثيرة كما قدمناه في مسائل ملك اليمين وشهوانية التعدد.

إني أشعر بفقر هذه الدراسة في الجوانب الإحصائية والإخبارية ،وهي بلا شك ستكون أغنى وأقنى لو حظيت بذلك، ولكن الشريحة التي أخاطب هنا لا تبالي بغير النصوص المنقولة كتاباً وسنة وقول فقيه، وهو منهج كافٍ ــ من وجهة نظري ــ لإحداث الإصلاح المأمول ،إذا وضعت هذه النصوص في سياقها التاريخي، وإذا تم الاختيار من هذا الموروث بإدارة بصيرة واعية رشيدة .

ومع ذلك فإني أعتقد أنه ليس من حق الإحصاء وحده أن يكون فيصلاً في مسؤوليات المرأة وواجباتها ،كما أنه ليس من حق الموروث التاريخي وحده أن يقرر ذلك بل إن

اشتراك التراث والواقع والدراسات النفسية والاجتماعية والقانونية كل ذلك ضروري لتمضي المرأة في السبيل الذي يحقق لها كرامتها، ويحقق للمجتمع تكامله وألقه.

وما اقتصاري في هذه الدراسة على جانب المبحث التراثي وحده إلا بدافع من احترام الاختصاص والوعي بالآخر.

وأجد نفسي مطالباً بشدة للاعتذار للمرأة المسلمة التي توجهت إليها في دراستي ،ذلك أننا نتحدث عنها بإفراط في الجوانب الجسدية كالحجاب والحيض والنفاس والنكاح وغير ذلك، ونقصر تقصيراً شديداً في وفائها حقها في الحديث عنها كروح طاهرة، ومشاعر صادقة، وحنان متدفق، بحيث لا ننتبه إلى ما يعصف بقلب الأنثى من مشاعر الحب والجمال، والشوق والتدفق، ومكامن الإلهام، والذي يعذرني في ذلك أننا نتكلم عما يتطلب إصلاحه، وهو للأسف يتصل في جانب كبير منه بالظروف المادية، فيما أجد أن المرأة لا تنازع في حقوقها وواجباتها الروحية، وآفاق ألقها وإشراقها فيه.

لست أزعم أني وفيت قضايا المعاصرة حقها، ولكني لست في الواقع أول من يتحدث في المرأة تنويراً أو تقليداً ولن أكون آخرهم، وبحسبي أني عمدت إلى المسائل الأكثرجدلاً فوضعت

يد القارئ على الآراء المغيبة، والمحبوسة من دون محاكمة منذ قرون، وجهدت في إطلاقها في الواقع الذي يزداد إلحاحاً كل يوم.

ولا زال في النفس كلام كثير عن عمل المرأة، وحقوقها وواجباتها ، ودورها المجيد في الأمومة والتربية، والمظالم التي لحقت بها أرملة ومطلقة، بل وزوجة أيضاً، إن في إطار القوانين التشريعية أو في إطار التطبيق العملي لهذه القوانين. وكيف يتسنى لباحث أن يزعم أنه أحاط بقضايا المرأة، وهو إنما يتكلم في الواقع عن نصف سكان الأرض ،بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مد وجزر .

■ ■ ■

المراجع

تفسير القرآن لابن كثير

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

تحفة الاحوذي بشرح سنن الترمذي

فتح الباري

صحيح مسلم

صحيح البخاري

شرح النووي على صحيح مسلم

المحلى لابن حزم، كتاب البيوع

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير

مجمع الزوائد

مسند الإمام الشافعي بترتين السندي

عون المعبود في شرح سنن أبي داوود

المنتقى شرح المؤطأ للباجي المالكي

شرح العلل للترمذي

المدون الكبرى

سلسة الأحاديث الصحيحة

سبل السلام للصنعانيالقواعد النورانية لابن تيمية

الإنصاف للمرداوي

الفهرس

الفكرة في سطور..٥
مقدمة ٩
المرأة تمارس نشاطاً سياسياً وتمنح جواراً لبعض الفارين من العدالة:..١٣
المرأة تمضي مع الرجل حيث تقتضي الحاجة، تستعين به في قضاء حوائجها...١٥
المرأة تخطب أمام الرجال وتحاور وتناقش......................١٧
المرأة تقيم الولائم وتستقبل الضيفان: ١٩
المرأة تشهد مع الرجال المناسبات العامة......................٢٣
المرأة تنظم الشعر وتنشده أمام الرجال ٢٥
المرأة تعمل وتتجر وتكسب وتبيع بنفسها ٢٩
المرأة تداوي الرجال وتقوم بالطبابة وتقاتل في المعارك مع الرجال..٣٣
المرأة تغني أمام الرجال غناء ملتزماً بالفضيلة والعقيدة.....٣٥
المراة تعلم الرجال ويأخذون منها ويروون عنها...............٣٩

المرأة تقوم بمهام اجتماعية وقضائية ٤١
المرأة تركب مع الرجال على راحلة واحدة.................. ٤٣
العروس تخدم الضيوف في وليمة العرس...................... ٤٥
المرأة تعود الرجال ويعودها الرجال............................ ٤٧
اشتراك النساء والرجال على موائد الطعام ٤٩
المراة تجادل بالحجة حتى تحصل على تعديل دستوري...... ٥١
السفر دون محرم... ٥٧
المرأة تصلي إماماً بالرجال ٧٥
القول بنبوة المرأة.. ٧٩
الختام... .... ٨١

□ □ □

سلسلة الفقه بين الأصل والصورة

المرأة في حياة محمد ﷺ

الدكتور محمد الحبش

محاولة جريئة في كشف اللثام عن كثير من المسائل في فقه السلف التي قررها الأئمة المعتملون في الإسلام على اختلاف مذاهبهم وأصولهم لينعم الناس في ظلالها، ويسعدوا في سماحة الدين ويسره، وليتخلصوا من حياة الحرج والقلق الديني الذي أوقعهم فيه فقهاء التزمت والتشنج.

منذر أحمد الدقر

......وهو أيده الله مستقبله أمامه في جهاده في رفع الآصار والأغلال كما هي وظيفة الأنبياء التي ورثها عنهم العلماء، وعلينا أن نتذكر أن الجهل يصنع الضعف والاستكبار. وأن العلم يصنع مجتمع السواء الذي يقلص الجهل ويقاوم الاستكبار حتى ينفيا من الأرض ونتخلص من أذاهما.

جودت سعيد.

بين محبسي الجهل والفقر عاشت المرأة العربية ردحاً من الزمن، وفي سجون الفاءات الثلاث (الشرف والعلف والخلف) ظلت حبيسة لقرون علة.

ما بين أيدينا فقه الخلاص من الأقفاص المحنطة.

يفرق الدكتور محمد الحبش في كتابه هذا بين قول الله سبحانه وتعالى للطلق في حكمه ودلالته غير المتناهي الحمال لوجوه ومعان علة وبين قول الشارح المحدود بجغرافية المكان وآنية الزمان.

في تلك التفرقة تحرر وتحرير وإعادة تشكيل لفقه يعتذر للمرأة لكونه بقي حبيس المظهر ولم يعط للعقل والوجدان اعتناء كافياً.

علاء الدين آل رشي